الفصل الرابع

(الحكمة الإيمانية) شرط التقدم العلمي

أ.د. محمد السعيد جمال الدين(*)

تُعنى هذه الورقة بعرض خلاصة لآراء المفكرين ودعاة الإصلاح حول الشرط الأساسي اللازم للتقدم البشري الخلاق ذي الطابع الإنساني والصبغة الأخلاقية وهو ما سموه "الحكمة الإيمانية".

والحكمة الإيمانية وإن كانت تعتمد المعرفة الحسية كمعيار صحيح للحكم على الظواهر، لكنها تتجاوز هذه المعرفة إلى نوع آخر أكثر عمقًا وشمولاً، وترى أن الوقوف عند مجرد المعرفة الحسية ينطوي على الضلال، فلابد للمعرفة الحسية من غاية تدركها وهي الاستدلال بالمصنوع على الصانع وبالمتحرك على المحرك، وحينئذ تتأدى تلك المعرفة الإيمانية التي بها تكمل كل معرفة معتمدة على الحس.

وقد لاحظت أن العلم الحديث قد أسقط "الحكمة الإيمانية" من منظومته. وكنت منذ بضع سنين قد شُغلتَ مع عدد من المفكرين المصريين بقضية "حوار الحضارات"، وعكفنا طويلاً على دراسة أوجه التفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وكم كانت دهشتنا جميعًا حين تبين لنا إلى أي حدٍّ صدقت مقولة الأمير "شارلز" ولي عهد إنجلترا بأن الحضارة الإسلامية تعد مكوّنًا أساسيًا من المكونات التي قامت عليها الحضارة الغربية والتي نهض عليها العلم الحديث، وأن جانبًا كبيرًا من التقدم العلمي الذي أحرزته الحضارة الغربية إنما يُعزى إلى الإنجازات العلمية والمنهجية الرائعة التي حققها العلماء المسلمون في عصور الازدهار.

لكنني اكتشفت مؤخرًا ومن خلال قراءاتي لكتابات روّاد الإصلاح في العصر الحديث أن هذا التأثير (وإن كان حقًا لا مراء فيه) لا يعني أن العلم الغربي هو مجرد امتداد للعلم

(*) أستاذ دكتور.

الإسلامي؛ فالأسس المعرفية التي يقوم عليها كل واحد منهما متباينة أشد ما يكون التباين مختلفة أشد ما يكون الاختلاف.

ولعل ذلك يرجع ـ أول ما يرجع ـ إلى نظرة كل منهما لعالم الإيمان، والوحي.

فالأساس المعرفي للإسلام يقوم على وحدانية الله، وعلى أنه متعال عن خلقه مهيمن عليه. كما يقوم على ترابط الكائنات بعضها ببعض، وعلى الوحدة السارية بينها.

فالعالم كله ـ في نظر الإسلام ـ يتطلع إلى "المثل الأعلى"، إلى الله، ينشده ويبحث عنه ويسعى إليه ويحاول التقرب إليه والاتصال به، والله ـ تعالى ـ من جانبه يرعاه ويحفزه ويستجيب له؛ مما يولّد هذه الحركة الدؤوب في الكون، وينتج عنه هذا الانفعال الروحي الذي يرتقي بالإنسان ـ أفضل الكائنات ـ إلى سقف الفلك الأعلى متجاوزاً الكون كله، كما يقول الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي.

كل ما نراه في الكون إنما هو مثير للدهشة، يذكرنا بقدرة الله وحكمته، يمنحنا كل لحظة حياة جديدة، ويشعرنا بالحياة الحرة المتجددة، ويصلنا بالحي الذي لا يموت، فما هذا الجمال في الطبيعة إلا تجل ـ وإن كان محدوداً ـ لجمال الحق تعالى، وما هذه الرحمة التي نراها في رأفة الدابة بوليدها وحنانها عليه إلا انعكاساً لجزء صغير من أجزاء الرحمة بخلقه.

ما تشاهده من مظاهر الطبيعة من حولك ما هو إلا صدًى للأسماء الحسنى: القادر، القاهر، الجليل، الصانع، المبدئ، المعيد... ما تشاهده من مظاهر من حولك ما هو إلا انعكاساً للصفات العُلا.

وينفعل العلم الإسلامي انفعالاً عميقًا بهذا التصوّر، فيربط المستويات الدنيا في الوجود بالمستويات الأعلى. ويبدو هذا العالم المادي في نظره هو أدنى المستويات في السُّلَّم الهرمي للوجود، لكنه على كل حال مرتبط بما فوقه من مستويات ومراتب.

بل يتاح لأرقى الكائنات فيه، وهو الإنسان، أن يتنقل في سلَّم الوجود صاعداً من الأدنى إلى الأعلى، ولتسمحوا لي أن أستخدم تعبيرات جلال الدين الرومي مرة أخرى، يتحدث الإنسان عن نفسه معبراً عن أن الإنسان إنما يتمثل في نفسه مراتب الكائنات كلها من جماد ونبات وحيوان، وهو ينطلق في تطوره الدائب إلى حيوات أخرى لا يدركها عقل.

خلقت من تبر وحجر، ثم ابتسمت في ثغور زهرات عديدة الألوان، ثم جبت مع الوحش فوق البسيطة والأنهار والبحار، وحبوت على بطني وعدوت على رجليّ، ثم تشكل سرّ وجودي فإذا أنا إنسان. ثم أمضي متجاوزًا الأفلاك متجاوزًا الملائكة، وهناك، أمضي فوق الليل والنهار، فوق الحياة والموت.

هذه هي النظرة الإسلامية للعالم، وهي نظرة تختلف كل الاختلاف عن العلم الحديث.

فالعلم الحديث يرى أن العالم حقيقة منفصلة عن الله، حقيقة مستقلة قائمة بذاتها، نعم، في أحسن الأحوال ربما يكون الله ـ تعالى ـ قد خلق العالم، شيّده وبناه، وأحكم بناءه، لكن هذا البيت الذي تم بناؤه قد أصبح حقيقة مفردة قائمة بنفسها معتمدة على ذاتها. ولم يعد بحاجة إلى من قام ببنائه، فتدخُّل الله في إدارة شئون العالم أمر لا يجد قبولاً في النظرة العلمية الحديثة.

ولما كان العالم موضوعًا قائمًا بذاته، أصبح خاضعًا لمقاييسه هو، بمعنى أنه خاضع للقياس الكميّ والرياضي. ورغم أن العديد من مظاهر الوجود لا يخضع لهذا النوع من القياس الكمي فإن أساطين العلم الحديث لا يأبهون بذلك، ولا يلتفتون إليه.

ولما كان العقل هو مناط الحكم على العالم، بالمقاييس الرياضية والكمية، بدا في نظر العلم الحديث هو القادر وحده على تصريف شئون هذا العالم، دون تدخُّل من خارج، ودون تدخُّل من الوحي، ودون تأثر بالجوانب اللاهوتية والفلسفية، التي تبدو مستبعدة ـ بصورة منهجية من "العلم" ـ حسب تعريف هذا المصطلح في الغرب منذ النهضة العلمية.

* * *

وربّما يرجع هذا التناقض في الأسس المعرفية بين العلمين الإسلامي والغربي إلى أن العلم الحديث ولد في القرن السابع عشر حين ثارت الفلسفة الأوربية نفسها ضد الوحي وضد النظرة الدينية للعالم.

وقد تدعّم هذا التوجُّه حين جاء داروين بنظرية النشوء والارتقاء، التي تقول بأن الأشكال العليا للحياة تطورت بصورة ارتقائية عبر الزمن من أشكال دنيا، وأن يد الله ـ تعالى ـ قد استُبعدت من تكوين مختلف الأنواع ومن التطور التاريخي للكون، وأنه لا يوجد هدف للتطور بل هو يعمل من خلال "صراع" بين مختلف الأنواع، وبقاء الأصلح.

وحين أصبحت هذه النظرية تطبق في علوم أخرى أخذت تُباعد بين العلم والدين، كما قضت على المعنى الروحي لخلق الله وقداسة هذا الخلق، وبددت الشعور بالوعي المستمر بوجود الله بوصفه خالقًا ورازقًا وواهبًا لأشكال الحياة، كما يصفه القرآن الكريم والكتب المقدسة.

وقد وُجِّهت إلى هذه النظرية الداروينية انتقادات تدحض في صلاحيتها، لكن قوة أنصار الداروينية ونفوذهم أدى إلى إهمال كل نقد. ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن هذه النظرية ـ كما يقول الدكتور سيد حسين نصر الأستاذ الإيراني في جامعة جورج واشنجتون ـ إنما هي أحد أعمدة العلم الحديث، وأن المذهب الارتقائي إذا ما تقوض فإن البنية التي يقوم عليها العالم سوف تتقوض في مقابل التسليم برؤى وتصورات تتبناها حضارات أخرى. ولذلك يستمر تدريس النظرية في الغرب كحقيقة علمية، لا كمجرد نظرية فحسب، ولا يزال من يعارضها يجرى إسكاته بشكل أو بآخر بوصفه أحد الظلاميين الدينيين.

* * *

ومن أهم ما يميز العلم الحديث مذهب الاختزالية العلمية، ويشير الأستاذ سيد حسين نصر في بحثه عن العلوم الحديثة إلى أن مجموعة كاملة من فروع المعرفة (وهي العلوم الاجتماعية أو العلوم الإنسانية) أصبح كل منها يحاول مضاهاة أساليب العلوم الفيزيائية، حيث يحاول كل منها بلوغ أقصى درجة من قابلية التقدير الكميّ أو "الدقة".

ثم هناك دافع فلسفي كامن وراء منظومة العلم الحديث يرمي دائمًا إلى الهبوط بما هو أعلى إلى مرتبة الأدنى، مثلما فعل ديكارت من قبل، فقد تم اختزال الروح **Spirit** إلى مرتبة النفس **Psyche**، والنفس إلى نشاط بيولوجي، والحياة إلى مادة جامدة، والمادة الجامدة إلى مجرد جسيمات كمية أو حزم من الطاقة يمكن قياس حركتها وقياس كميتها،

ولعل ذلك راجع إلى إيمان ديكارت بمقولته التي طالما رددها وهي أن "الجوهر المادي هو الحقيقي".

فهذا الدافع الفلسفي لا يسمح بأن يُعزى إلى الحياة حقيقة ترتفع فوق المكونات المادية التي تشكّل مجرد خلية حية، ولا أن يُعزى إلى النفس أية حقيقة تتخطى النشاطات البيولوجية للجسم، ولا أن يعزى إلى الروح أية حقيقة تتعدى نشاطات النفس، ويتم مسخ الإيمان بالله إلى عقد نفسية.

والمشكلة في الأمر برمته أن هذه النظرية ترفض أي أسلوب آخر من أساليب المعرفة، وأنها أخذت تؤكد أن النظرة الدينية إلى الكون غير ذات موضوع، وأن الدين ليس إلا مجرد أخلاقيات وقضايا ضميرية خاصة، منتقاة انتقاءً مجافيًا للموضوعية، مما أدى إلى محو "الدهشة" التي يشير إليها القرآن الكريم، وإزالة الفكرة الدينية الأساسية لظاهر الطبيعة التي يجليها الله في عملية خلقه: "ألم تر"، "أولم يروا"، "والله خلق"، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ. . . ﴾ (إلى آخر الأيات الكريمة من سورة النور: ٤٣).

* * *

ومن أظهر مظاهر العلم الحديث دعم الحكومات لهذا النوع من المعرفة القاصرة على معطيات الحس، لا حبًا للمعرفة في ذاتها وإنما حبًا في السلطة والثروة.

لقد كان من أهم خصائص العلم الحديث ـ وهو ما يميزه بوضوح عن العلم الإسلامي ـ هو أن هدفه كان منذ البداية السيطرة على الطبيعة، وهو ما عبّر عنه الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون، وأدى إلى أن الحكومة البريطانية بدأت منذ القرن السابع عشر في دعم العلوم، من أجل تحقيق المزايا الاقتصادية والعسكرية.

وهنا ظهرت قضية تتعلق بالمسئولية الأخلاقية للعلماء، بعد اختراع القنابل الذرية والهيدروجينية، وما أحدثته من دمار هائل، فضلاً عن الأساليب العديدة التي تعمل على تدمير البيئة مما يهدد نسيج الحياة على الأرض.

وقد نشأ هذا الموقف نتيجة للفصل بين العلم والأخلاق، وهو الفصل الذي ميّز العلم الحديث منذ ولادته، لأن مصالح البشر بعامة لا تؤخذ في الحسبان، وقد بقيت قضية المسئولية هذه واحدة من أهم معضلات العالم الحديث.

* * *

بقيت قضية التكنولوجيا، أي تطبيق العلوم في الواقع، وهي بالطبع ليست مرادفًا للعلم، ولكن بدأ التحالف الوثيق بينهما منذ ظهور الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، مما زوّد الإنسان الحديث بقوة كبيرة جعلته يسيطر على كل من الطبيعة والحضارات الأخرى التي تعوزها نفس الوسائل التكنولوجية، فضلاً عما حصّله من ثروات ضخمة.

وقد بدأت في الغرب الحديث موجة من العداء للتطبيق غير المحدود للتكنولوجيا الذي يمكن أن ينتج عنه تدمير البيئة الطبيعية بل زوال الحياة البشرية عن وجه الأرض.

* * *

علينا الآن أن نخلص إلى نتيجة لهذا البحث:

فما قدمناه في إيجاز واختصار يدلّنا على أن تبنِّي منظومة العلم الغربي (بجانبيها العلمي والتكنولوجي) بهدف تحقيق التقدم لن يدفع بنا إلى الأمام قيد أنملة، بل سيُلحق الضرر بنا من كل الوجوه، وسيؤدي بنا إلى التنكّر لمقومات هويتنا وتراثنا، كما سيؤدي إلى نزع الطبيعة الإنسانية عن شعوبنا، وإلى القضاء على روح التراحم والتكافل فينا.

ولا نعني بهذا أبدًا أن نرفض العلم الحديث بل هي محاولة لتصحيح مساره.

والعالم العربي والإسلامي ـ ومصر في القلب منه ـ مطالب الآن باغتنام هذه الفرصة التاريخية بعد أن أفرغ العلم الحديث ما في جعبته ومضى في طريق لن يُفضي إلا إلى دمار البيئة فتبدت بوضوح النتائج المدمرة التي ترتبت على منظومته.

بوسع العلماء العرب والمسلمين أن يغتنموا هذه الفرصة بإجراء مصالحة بين العلم والنظرة الدينية، وتطبيق العلوم على أساس من الحفاظ على الحياة الإنسانية والبيئة التي يعيش فيها الإنسان، والتوجه بالعمل العلمي والنشاط البحثي والتطبيقي إلى آفاق أعلى لخدمة الناس ومعرفة الكون واقتفاء أسراره لا للسيطرة عليه بهدف تغيير وجهته (فهو منقاد

بطبعه للإنسان) بل لحسن التكيف معه وجعله سلّمًا للرقي المادي والروحي معًا والاستدلال به على معرفة صانعه ومدبّره.

فإن فعلنا ذلك فربما فُتحت لنا عوالم جديدة من المعرفة والإبداع والابتكار هي غائبة بالتأكيد عن أولئك الذين باعدوا بين العلم والروح الذي يتعين أن تجلله، ولم نتخل بذلك عن حمل أمانة الخلافة التي أودعنا الله إياها فنشترك في بتدمير الحياة عليها من أجل الالتحاق بالغرب.

obeikandl.com